مذكّرات
قصيرة
لرجل
مثقّف
كتبها بنفسه

مُذكّرات قصيرة لرجلٍ مُثقّف

كتبها بنفسه.

جميع الحقوق محفوظة، لا يجوز إعادة إنتاج أيّ جزء من هذا الكتاب أو نقله بأيّ شكل أو بأيّة وسيلة، سواء كانت إلكترونيّة أو ميكانيكيّة، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من المحرّر: **يوسف شرقاوي.**

كتب هذه الكلمات رجلٌ ما حقيقيّ. لم يشهد غير هذه الأمور في حياته الطويلة، والمحكومة بشيءٍ ما خفيّ أيضاً. إنها لغة عقل هذا الإنسان، الذي يجد نفسه مسجوناً، ثمّ يُحكم على نحوٍ غريب. وهي لغة يجب أن تكون مقبولة، استخدمها بجديّة وشعورٍ حقيقيّ، باعتدالٍ وإخلاصٍ لعصره.

محرّر هذه المذكّرات يُؤمن أنها تاريخ من الحقائق، على الرغم من قصرها، ولا يوجد فيها تلك اللغة الخياليّة المُعتادة، ولا حَدَث أو مغامرة، لكنّ العيش في خضمّ ما هو مكتوب هو وحده مُغامرة وصمود وفيه من المُخاطرة ما فيه. إنّ كاتب هذه المُذكّرات، الرجل الحقيقيّ، لا يختلف عن روبنسون كروزو أو حيّ بن يقظان، لكنّه يبقى معزولاً مع الملايين من الناس في سجنٍ كبير، يمكن اعتباره جزيرة نائية عن العالم، ومهما حاول المسجون أن يُؤسّسَ حضارةً جديدةً فيه كما فعل كروزو، يسمع أصواتاً مُرعبة، من ضمنها: صوت السِياط.

إنها في قالبٍ خالصٍ من الحقيقة، كتبها رجلٌ حقيقيّ، ومحرّرها رأى أنها تستحقّ النشر بين العامّة.

يوسف شرقاوي.

أنا، ولا يحقّ لي أن أقول هذه الكلمة في سجني الكبير، لستُ أحد. ولن أقول إنني رجلٌ مريض لأنّ ليس لي ملامح، ولا جسد ولا بُنية. لقد ذاب منذ زمن. أكتب مذكّراتي الآن ولا أعرف كم عمري -ولم يسبق لي أن حسبته لأنني أنكر التاريخ ولا أحبّه- وربّما هو مثل ثقافتنا لا يقدّم ولا يؤخّر. لستُ حامل أوسمة أيّها السادة، ولم أُتوَّج ذات يوم، لكنهم يصفونني بالمثقّف، وقد عاصرتُ ما استطعت معاصرته من سفاسف ومكارم وصراعات وحروب. لستُ وصولياً، لا أعرف شخصاً أرستقراطياً، ولا ليبرالياً، ولا برجوازياً، ولا إقطاعياً، ولا كادحاً، ذلك أنني أرفض هذه النعوت التافهة ولا تعنيني في شيء. ولا أتمتّع بأيّ قدرٍ من الذكاء الذي يسمح لي أن أفكّر بعيداً عن المألوف بيننا، والمألوف بيننا قليل ومعتاد. إنني أكتب هذه المُذكّرات لأنها حقّ، فأنا سجين، لكن سجني مختلف عن السجون الأخرى بمساحته الواسعة الكبيرة، وسجنائه المختلفين عن كلّ البشر، وأيضاً يتمتّع بميّزة عددهم الهائل والضخم.
إنني في سجنٍ يمتدّ على مساحة ثلاثة عشر مليون كيلو متر مُربّع، وفيه ما فيه من العجائب وجزءٌ ضئيل من إجماليّ مياه العالم، والغريب أيضاً أنّ فيه كلّ ما يوجد في أيّة بُقعة من بِقَاع الأرض، وما لا يوجد فيها أيضاً.
لا أتمتّع بالشاعريّة، لذا مُذكّراتي بليدة مثلي وباردة وجامدة، وأرجو أن يحتملها من يقرأ، فهي مسيرة إنسان من سائر

البشر، لا يتطرّق فيها إلى نفسه إلا قليلاً، ويَخرج عن الموضوع كثيراً.
ولأنّكم بالطبع تتساءلون، فإنني لا أعرف من أنا. واحدٌ من جدودي كما يُقال فرّ من أعدائه، ولم يتسنَّ لي أن أعرف من هو هذا العدو -لأنه هو لم يعرفه.
لكن هذا الجدّ فيما بعد تحالف مع غيره للدفاع والهجوم، فانسجموا فيما بينهم، ثمّ عرفوا الشكَّ والزهد، وما تيسّر لهم من معرفة. وبقوا على هذا الحال كما يُقال: أسخياء، شجعان، كرماء فخورون، يحبّون اللهو والصيد والغناء، أذكياء يفهمون من الإشارة، لهم أساليب من الكلام لا يمكن بلوغها. قال عنهم البعض إنهم مثال للديمقراطية، لأنهم لا يخضعون، وحُكي أنّ هذا التمرّد سبب بلواهم. وقال آخرون إنهم جامدو العواطف ضعيفو الخيال.
ولا أعلم لمَ أحكي كلّ هذا رغم كرهي للتاريخ، فأنا لستُ مطلعاً عليه، لكن وجب أن أحكي عن مؤسّسي هذا السجن الكبير، الذي ربّما كان أصغر فيما قبل، ثمّ أخذ يتّسع شيئاً فشيئاً حتى وصل إلى هذه الحال، وقُسّم لسجون كثيرة لا يمكن للسجين في واحدٍ منها أن يحكي مع الآخر، ولا أن يقطع حدود سجنه، فالحدود شيءٌ مُقدّس. ولأنني لا أعرف التاريخ على نحوٍ جيّد، فسينقسم الناس إلى طائفتين، واحدةٌ تقول إنّ من لا يطّلع على هذا الشيء الثمين لا مستقبل له، وأخرى تقول إنّه خزعبلات

وترّهات كتبها سكارى، وإن أُخذ بها سيضيع المستقبل. وهناك طوائف أخرى سوف تحكي في هذا الخصوص، فلقد اعتدنا على الانقسام، كما كنّا قديماً، عندما كنّا مُلاحقين من قبل الأعداء الذين لا نعرفهم، والآن لا نعرف الاتّفاق أو الانسجام، لأنّنا صرنا نعرف العدو، وما هو سوى نحن.
إنّ هذين الوجهين للتاريخ والمستقبل يؤرّقان العقل، ولكن، أسئلة تجول في ذهني: أين الحاضر منهما؟ وأين نحن الآن منّا؟ من نحن بالأصل؟ إلى أين الوجهة الآن؟ ما المحطّة التي سننطلق منها عمّا شقاء وبؤس وحرب جديدة؟ إلى أين نمضي؟ كلّ الأشياء باردة موحشة تفضّ طهر الأغوار وتلثمها، تفتقها وترتقها، وتمحق كلّ الخطوات التي سيرت للوصول إلى النهاية، فأين النهاية؟ هل سنمضي قدماً أم نعود أدراجنا؟ الحقّ أقول، لا أعرف، لكنّ إنساناً يظلّ يسأل يبقى يتعلّم.
إنّ ما أريد قوله إننا متأخرون جداً، متأخرون، وربّما فاتنا القطار. نحاول أن نشعل ناراً تحت الماء. متأخرون عن كلّ شيء، عن الإنسان والأحلام. فهل يمكن لأحد أن ينكر؟ لقد لُمنا العدوّ، فمن هو العدو؟ وانقسمنا لطوائف، طوائف تَفتي في كلّ شيء. فلأحكي مثلاً عن الأدب يا سادة، لقد أخذنا من "العدو" نظريّته البنيويّة، وحينما اعترف بفشلها ألغاها ولجأ لغيرها، وبقينا أكثر من ستّين عاماً لا نعرف سواها، ونناقش بها، ونقدّم الحجج، إننا لا نعرف سوى اللغو. ثمّ قدّم "العدو" عشرات

النظريّات الأخرى، فأخذنا آخرها، وبقينا نحتجّ حولها حتى الآن، ونكتب الخطابات، ولم نفهمها، فهل يمكن أن نعامل هذه الأشياء التي حولنا معاملة الندّ للند؟ هل يمكن أن نحكي شيئاً بوصفنا أقوياء وغير متطفّلين عليه في الوقت الحالي؟ هل يمكن هذا ونحن متأخرون في آخر عشرين عاماً قرناً كاملاً؟ نحكي في اللغة، وسيخرج أحدٌ من أتباع هذه الطائفة ويقول كلاماً كثيراً حولها. فهل يمكن من هذا الحضيض الذي نحن فيه إلا أن يكلّ اليراع؟ وهل يمكن أيّها السادة في ظلّ هذا التقاعس والنأي بين الفكر والممارسة والتطبيق إلّا أن يرجع الواحد منّا إلى موطئه دامياً مدركاً كلّ الدراية أنّ قبضةً واحدةً لا تُصفّق؟ وكيف يمكن أن يغدو الفكر في أوجه إذا ما امتنعنا عن حشو أدمغتنا في أمعائنا وألسنتنا؟ مَن جرّب وشاهد عليه الإيصال، وبينما كنّا مُنشغلين لسنين طويلة في إطلاق فتاوى حول مستقبل اللّغة، كان "العدو" يوظّف لغته بمعارف وعلوم جديدة، وإبداعات لا تنضب. فأين نحن الآن؟ وهل سنمضي قدماً؟ لقد تأخّرنا كثيراً، كثيراً جداً، وإنني لا أوظف مفردة "العدو" إلا في موضع التهكّم، فهذه المُذكّرات إنسانيّة، تُآخي من يريد أن يُآخيها، ولا تعرف الكره ولا الحقد ولا البغض، إنها حانقة فقط، حانقة على ما وصل إليه الإنسان في هذا السجن الكبير في الألفيّة الثالثة، حانقة على ثقافته وفقره وتناقضاته ومفارقاته وحروبه الكثيرة التي يخوضها وهو العدوّ فيها وهو المجنيّ

عليه، فهل يمكن أن نقف بعد هذا كلّه؟
إنني لا أكتب عن نفسي، ولا أتّخذ من هذه المُذكّرات سبيلاً لألج إلى دواخلي وأحلّل ذاتي مُعمماً إيّاها على أيّ إنسان آخر، فالزمن مختلفٌ كلّ الاختلاف، وفي هذا السجن الكبير، لا يمكنك أن تجد إنساناً يشبه الآخر، بل وهذا حرامٌ أيضاً. فلقد اتّفقنا دون أن نعرف أو بمعرفةٍ مسبقة أن ننعت كلّ إنسان بنعتٍ ما يناسبه، قلنا عن المهتمّ بالدين متديّن، ثمّ قسّمنا هذا وأطلقنا على المسيحيّ مسيحيّ والمسلم مسلماً والدرزيّ درزياً وغيرهم، ولأننا لم نكتفِ صرنا نوضّح أنّ هذا المسيحيّ أرثوذكسي أو بروتستانتيّ أو كاثوليكيّ، وعلى المسلم سُنّي أو شيعيّ، وأيّ منهجٍ يَتّبع، وقسّمنا ما تبقّى أيضاً، ثمّ أطلقنا نعوتاً مثل: ربوبيّ، لا دينيّ، مُلحد، وغيرها. وفي السياسة لم نختلف، فبينما كنّا نكتفي بإطلاق صفة: "حزبيّ" على المنتمي لحزبٍ ما، صرنا أخيراً نصنّف لأيّ حزبٍ منتمٍ، اشتراكياً كان أم شيوعياً وغيرهم كثر، ولمَ، وكيف انتمى، وغير هذه التحليلات الكثير غيرها. ولم نكتفِ، فحتّى اجتماعياً أطلقنا نعوتاً كالفقير والغنيّ والعامل والحرفيّ وغيرهم. وهذا لا بأس به إذا كان مسبوقاً بالتعريف الرئيسيّ للّحم والدم الذي يسير على قدمين: إنسان. ولو كان هذا مطلوباً بحق دون أن نقيّم هذا الموصوف من خلال صفته.
إذا لم نلقَ مؤامرةَ نتذرّع بها نتآمر على أنفسنا، فقد اتّفقنا منذ

الأزل على أننا مستضعفون متآمرٌ علينا من قبل الجميع.
وبالطبع: سيحكي أُناسٌ كثر عن الحضارة القديمة وما قدّمته وأنتجته للبشريّة وكيف أنّ "العدوّ" سرقها أو استعارها، فكيف ندين أنفسنا على هذا النحو يا سادة؟ لو كنّا نعرف أننا أحقٌّ بهذه الحضارة أما كان الأجدى أن نُبقيها نحن؟ وهل يُعوَّل على مثل هذه الخسارة التي أجبرنا أنفسنا عليها؟ فبمَ نتباهى وبأيّ حقّ ونحن الذين أضعنا ما نتباهى به؟ فأين نحن الآن منّا إن كان لنا قديم؟ لقد تحاربنا من أجل هذا القديم لمئات الأعوام، فإمّا استحضرنا سلبيّاته أو جلبنا سلبيّات الذي لا نملكه.
لابدّ أن نعرف يا سادة أنّ عمليّة التغيير وخلق الواقع بما يتناسب مع التراث أو الحاضر الذي لا نملكه تأخذ منعطفاً حاسماً له نتيجتان، إمّا نسيان الماضي بكافّة حيثيّاته، أو صبغة الواقع بحاضر الغير سواء كان سلبياً أم إيجابياً، التمسّك بالقديم أو تقبّل الجديد وقبوله كفرضيّة يحدث في أي مجتمع، لكنّ الواقع الذي نعيشه وننغمس فيه ونحن جزءٌ أساسيّ منه، صار جزءَين لا ثالث لهما، وكلاهما ينتميان وينحصران تحت مسمّى "التقليد". تقليد الماضي الذي هو لنا بكل سلبيّاته وانفعالاته وعاداته مع إيجابيّاته، أو تقليد حاضر الغير بشكلٍ كليٍّ وبمنظورٍ مغلوطٍ يَتضمّن السلبيّات العديدة الكثيرة قبل الإيجابيّات التي تُشكّل حيّزاً ليس بكبير.
نتذرّع بمُبرّرات عديدة الأكثر شيوعاً فيها هو: التحرّر. وإن كنّا

سنتطرّق لهذا المصطلح بمفاهيمه الكثيرة، فقد تمّ الخلط بين مفهومَي التحرّر الفكريّ والأخلاقيّ، وصار التحرر الأخلاقي مسوَّغاً بلا رادع، إن كان تحرراً، ويجدر القول إنّ هذه العمليّة التي لابدّ من مواجهتها لا تكون على هذا النحو، فهناك فرضيّات تراثيّة من الماضي المملوك يجب التمسّك بها والتفكير بنتائجها السلبيّة إثر مخالفتها، وكردّة فعل على عبثيّة التقليد وعدم اقتناء الجيّد من المخزون الثقافيّ الكليّ للغير، يضيع الماضي والحاضر على حدٍّ سواء.

نحنُ لا ننتج واقعَنا، لذا لا ننتج ثقافتَنا!

ومن البديهيّ أنّ الذي يستورد قطعةً مهما كانت نوعيّتها، سيكتسب معها جزءاً من ثقافة المورّد، ويصير الواقع المفروض فوضوياً لا يعرف التنظيم، فتبدأ الذرائع والمسوّغات والمبررات اللا عقلانيّة، فيصير التمسُّكُ المطلق بالقديم ردَّةَ فعلٍ لأخطاء الجديد، والتمسُّكُ المطلق بالجديد ردَّةَ فعلٍ لأخطاء القديم، وبهذا تكون المبرِّراتُ مُستمدَّة دوماً من أخطاء الآخر، لا من الذات، ويُصنَّف المتلقّي للثقافة أو المنتج لها حسب الآتي:

_ من يتكلّم عن أخطائه الذاتيّة ليروّج لأفضليّة الغير.

_ من يتكلّم عن أخطاء الغير ليبرّر سوء ثقافته.

_ من يتكلّم عن مشكلات المدنيّة الغربيّة ليبرّر -ولو إرضاءً لذاته- الواقعَ الذي يعيش فيه بكافّة أخطائه ومعتقداته المغلوطة.

وكلّ نتيجة ممّا سبق لا تكون أقل سوءاً من تاليتها!
إن لم يكن لدينا القدرة على خلق الواقع، فنحن -على الأقل- نمتلك القدرة الكاملة على اقتناء الثقافة الصحيحة ولو كانت للغير، يجب الفصل بين الماضي وعاداته وتقاليده، والحاضر المُقلَّد أو المملوك، واقتناء ما يتناسب مع إنتاج ثقافة غنيّة تخدم الإنسان، فعمليّة التغيير التي تحدث ليست عمليّة ذاتيّة وحسب، لذا لابدّ من النظر إلى ما خلفها، ولابدّ من خلق التجانس بين المواقف الثقافيّة ككل، متناغمةً مع حاضر الغير لخلق واقعٍ ينتج ثقافةً ذاتيّة.
نفي القديم عن الجديد أو العكس، وتفهّم التحرّر حسب سياقه الصحيح ومكنوناته الواقعيّة، هما اللّذان يُجنّبان التخبّطَ والتعثّر وإبقاءَ الفكر محصوراً بحلّ معضلةٍ كهذه بالتناسب مع تناسي الكوارث الكبرى.
كلّ السبل تتيح الحفاظ على التراث والماضي مع تقبّل حاضر الآخر وانتقاء المناسب من كلَيْهما.
أمَا كان معرفة هذا أجدى من خوض الحرب المستمرّة لحدّ الآن بين الماضي والمستقبل؟ أمَا كان يمكن أن ننتج بهذا ثقافةً غنيّةً يمكن لها أن تكون نداً لسواها؟ فبينما تتصارع طائفتان لا ثالثة لهما بين التراث والمستورَد، وكلٌّ منهما تكتب وتبرهن وتغالي، وبينما تتصارع طائفتان لا ثالثة لهما بين النقد المأخوذ من "العدوّ" والنقد الذي يجب أن نبتكره، وكلٌّ منهما تكتب

وتبرهن وتغالي، وبينما تتصارع طائفتان لا ثالثة لهما بين الرأسماليّة والاشتراكيّة، وكلٌّ منهما تكتب وتبرهن وتغالي، أمَا كان يمكن أن تنتج شيئاً؟ إننا نتصارع على ما لا نملكه، وبينما نتصارع أيضاً في مفهوم التحرّر، أليس الأجدى أن ننظر إلى الشباب؟ انزلوا إلى الشوارع يا سادة، انظروا الحال، تفحّصوا المواقع، وانظروا الحال. لقد اعتدنا الانقسام حتّى على مواقع التواصل الاجتماعي. لقد أنشأ الشباب لأنفسهم أسراً إلكترونيّة ينتمون إليها وتتصارع فيما بينها، ولقد صار الكتاب منبوذاً على الرصيف، لا يقتنيه سوى الغبار والحشرات الضالّة.
وعلامَ نتحاجج؟ على الفراغ؟ فهل نملك حتّى هذا الفراغ؟ نكتب عن العولمة، فهل استنبطنا منها أيَّ مفيد؟ هل وظّفنا شيئاً ممّا بلغه "العدوّ" بما ينفعنا؟ أوليس للحزن الذي يطغى علينا صغاراً وكباراً عولمته أيضاً؟ ألا يفتّت أرواحنا النامية ويلوكُ ما تبقّى منها متذرعاً بحمايتها من الفرح الضئيل المُباغت؟ لقد انقسمنا أيضاً إلى طائفتين لا ثالثة لهما بين متشائم ومتفائل، لكن هل نظرنا إلى الواقع؟ ألا يصرع وجيب الصدر العاري ويفضُّ طهرَ الأحلام منذ الطفولة حتّى الكهولة؟ لنا في كلّ حربٍ بعيرٌ وناقةٌ، ولو اخترعناهما أو تخيّلناهما، لكن ممّ نثأر؟ هل من شيءٍ نثأر لأجله؟ هل يُستعاد الميّت؟ ربّما أنا وأنتم والجميع الآن في نقطة النهاية، لذا نتراجع، كي نبقى نسير، كي لا نصل!

مقبرةٌ هذه البلاد يا سادة، وما من شاهدٍ يخبرُ المتفرّجين من هو القتيل. إنّ الإهانة تتوافد مثلَ النعايا في الصحف وكلّ أعداد الجرائد تفترش الأرض ليوضع اللّحم على مقالاتها، ومثقّفيها المتصارعين.
العباد، مهتمّون بدفن الموتى ذُلّاً وقهراً، لقد نسوا أنّ العبوديّة حسب رقم القرن حرام وأنّ زمنَ الكوليرا انتهى، لكنّهم مُصرّين على زرع كلّ جرثومة اكتُشِفت أم لم تُكتشَف في العقل، ومصرّين على تدمير الكون أمام منح الاستحقاق لمن يستحقّه. إنها مقبرة، بلا ضريح يوضّح من الضحيّة، فكثرة الضحايا منذ الأزل لا تكفيها الأرض قاطبةً بالذلّ والإهانة والعدم وتركها تتعفّن مثل شيءٍ كان أو لم يكن.
إنها مقبرة بلا أرض يا سادة، تدفن الأحياءَ الحالمين فلا يبقى مكانٌ للموتى.
انزلوا إلى الشوارع في هذا السجن الكبير، إلى المطارات وما سواها، تفقّدوا الأحياء والأرصفة، الحدائق والمخيّمات.
كيف يمكن أن تصدر فكرةٌ جديدة منّا، وحاملها مهمّش منبوذ؟ لا يملك عجلاتٍ سريعة، فسيبقى بطيئاً لأنه يسير على قدميه وعقله فقط، فهل يُلام سوانا؟
لو قيل: وضعت الحربُ أوزارها. بعد ثوانٍ قليلةٍ سيُقال: نشبت حربٌ جديدة.
كيف يمكن أن تصدر فكرةٌ جديدةٌ ونحن لا نسمح لأحدٍ أن

ينطق؟ هل هذه فضيلة؟ ما هي الفضيلة يا سادة؟ ما هي الرذيلة؟ ما هي السلطة؟ إلى أيّ حدٍّ يمكن أن تصل؟ كيف يخرج الإنسان عن القانون؟ كيف يبقى ضمنه ملتزماً؟

لا ريب أننا اليوم قد خرجنا عن حياة الغابة باحثين عن حياة كريمة هانئة -ولو بالاسم- ومنذ الأزل، شَغل البحث عن مدينة الفضيلة عقول الفلاسفة وصار همّهم الأكبر.

الإنسان الأسمى والمدينة الفاضلة، وفي حصيلة البحث، خرج كلٌّ من الفلاسفة حسب ثقافته بقوانين صعبة التطبيق لبلوغ الغاية.

كيف يمكن تحقيق جزءاً من هذه المدينة اليوم؟ كيف يمكن التطبيق؟

لا شكّ أنّ المضي قدماً قد تأخر، ونمط الحياة الإنسانيّة اختلف كثيراً أثناء البحث، بالإضافة إلى انقسام المجتمعات وانسلاخها واحداً عن الآخر، حتى في الأمّة الواحدة.

كانت جمهورية أفلاطون بعيدة نسبياً عمّا بحث عنه مؤسس علم الاجتماع ابن خلدون.

كيف نصنع ملكاً فيلسوفاً؟ الأمر قد اختلف!

في الألفيّة الثالثة الأمر بات مختلفاً كل الاختلاف، فقد أثّرت الحالة السياسيّة على الحالة الإنسانيّة المرجوّة، وإقرار قانون فعلي يسير عليه البشر يتطلّب في الوقت الحالي دراساتٍ وإحصاءاتٍ لكلّ بيئةٍ على حدة، فنحن في هذا السجن الكبير

مثلاً، لكي نبقى ضمن حيّز القانون -الذي يجب أن يُسيَّر على الحاكم والمحكوم سواءً- يلزمنا أكثر ممّا يلزم أمّة أخرى، وبهذا ليس من مجانبةٍ للصواب، إنّما واقعيّة مفروضة، فبينما كانت الشعوب تمضي، كانت على الوجه الآخر، هذه المجتمعات - التي عُدّ أغلبها نامياً راجعاً- مشغولةً بنفسها لتحقيق الحياة، فقد تأخّر إنشاء بقعة جغرافية تضمّهم، وهويّة تعرّف بهم، لذا بقي البحث عن الذات الشاغل الأكبر، ومع تحقّق الذات يجب أن تتحقّق الفضيلة، لكنها بقيت نائية.

القانون هو المقياس الأنسب، فهل صارت مخالفته عادةً لا مَفرّ منها في داخل النفس البشريّة "النامية"؟

وإن كان من تقسيم للأدوار والطبقات، فكيف يكون تقسيم المجتمع اليوم؟ بين الحاكم والمحكوم وطبقات الشعب، كيف يمكن الإجابة عن هذا السؤال وقد شغلت الحاجة الاقتصادية الملحّة الأدمغة والأفئدة؟

وفي المقابل، كيف يمكن للغالبيّة العظمى -وهي الفقيرة المحتاجة- أن تلتزم بقانون رادع، ربما كان لا يؤمّن لها لقمة العيش؟

هل ترى هذه الطبقة مخالفة القانون نفياً للأخلاق أم خلاصاً من الجوع؟

القانون هو المعيار، والمعيار الذي لا يمنح فرداً من الأفراد متطلبات وحاجيات عيشه، يكون باطشاً!

يفكّر الإنسان البسيط على هذا النحو: يمكن للدول الغنية -والتي لديها من الأموال ما يفيض عن حاجتها لمدة غير معلومة- أن تمنح الدول الفقيرة.
وبتفكيره البسيط هذا يقول الحق، فالوحدة التي فرّقت بدلاً من أن تربط، يمكن أن تُحقَّق بشكلٍ غير كلي عن طريق حاجة إنسانيّة ضروريّة.
لكن الواقع يقف حائلاً من جديد، ويصفع هذا الإنسان البسيط.
إنّ صوت معدة الجائع يا سادة يلحّ عليه لتحقيق الجمهورية داخلها:
طبقةٌ من الخبز تتفلسف في طريقها للدماغ.
قطع صغيرة من الطماطم تكون الطبقة العاملة.
كوب من الماء يحرس الدم.
لكنّه فجأة، يكتشف أنه ما من تكافؤ ولا كفاية، ويبقى منشغلاً بالبحث عن الخبز. لكنّ الخبّاز يُوصَف أنّه يساريّ، وموزّع الطحين يمينيّ، والفلّاح اشتراكيّ، والحصان شيوعيّ، والسائس رأسماليّ، وهو جائع، فيسرق الرغيف مخالفاً القانون.
فهل من فضيلة نهاية المطاف؟ ألسنا في هذه الحالة ما نزال في الغابة؟ وهل صارت لفظة "إنسان" ثقيلةً على النطق حتّى نقحم خلفها آلاف النعوت؟
إنني في النهاية الآن. نهاية العمر، ولأنني لا أعرف عمري ولا يقدّم ولا يؤخّر مثل ثقافتنا الحديثة فلا بأس.

إنني لست صاحب نهضة، لكن هذا ما عاصرته في حياتي، وظننته يستحقّ أن يُذكر في هذه المُذكّرات، وبعد الآن لن أكتب عن الأمر شيئاً، لكنني أعرف أنه يمكننا، يمكننا وبكلّ قوّة أن نمنح كلّ حالمٍ حلمَه، وكلَّ صاحب فكرة طريق الوصول لغايته.

إنّ رأسي في مقصلة الآن، وشفرتا هذه المقصلة حادّتان، اليأس والأمل، الحاجة والكفاية، الفكرة والقبر، وكلّ ما اجتمع من نقيضين في هذا العالم.

وأصرخُ وعنقي في هذه المقصلة:

أيّها الأصلم

اسمعِ الصوتَ قبلَ أن ترى الضوء

ففي كلِّ بؤرةٍ من نور يقبعُ ظلامٌ دامس

وقبل أن تفرحَ بالسيل

تحضّر للقحط

وقبل أن يورِد جملُك روِّضْه على العطش

فكلُّ من يرتوي مرَّةً يعطشُ مرّات

وقبل أن تسقي زهرتَك نبّئها بالذبول

فأيّ شمسٍ تأفل مباغتةً لا تُنير

وأيّ قمرٍ يستجدي نوره من نظيرٍ له

ليس رمزاً لعاشقٍ يتغنّى

وقبل أن تشبّب بالشادن

اعرفْ أنّه يتخلّى عن أمّه
وقبل أن تركبَ الخيل
تأكّد من حزنِه
كي لا يلفظكَ مع دمِ الفرح من أنفه
وقبل أن تجذّف
راقِبَ الموج
وقبل أن تبلعَكَ المحارة
تخيّل اللؤلؤة
ولا تتطهّر من حزنِك
فالفرحُ يُباع في الليل ويُسلَب في الصباح
وحين تسعى وراء عيشِك
اربطْ نعلَك في آخر الطريق
فالطرق تختفي على حين غرة
ولا تجزعْ من جرحك
إذا ما صنع ندبةً في لحمِك
فهو حكايةٌ ترويها في هزيعك الأخير
واوقِد الشمعَ دون أن يلسعَك
تأمّل الفتيل المنطفئ
فهو سنيّ عمرك
ولا تسرق الأملَ من فمِ الانتظار
كي لا توضَع مكاني

في مقصلة الخيبة.
هذه مُذكّراتي القصيرة يا سادة، والتي لا تُشبه المُذكّرات في شيء، أتركها لكم، أنا الخائب، فهل سوف نبقى نُجوّع الفكرة حتّى تموت؟